

المبحث السادس

تلازم الحياة والموت

«سئلتني جدّي يوماً: ماذا يعنى ربط الحياة بالموت فى القرآن الكريم؟، فقلت له أنهما متلازمان، قال وماذا تعنى بـ متلا زمان؟ فصمت، وظل السؤال معى حتى أصبحت أستاذة للبيولوجيا، ففهمت الاعجاز العلمى فى عملية التلازم تلك».

أحمد مصطفى بكر

الامين العام لمركز دراسات الاعجاز العلمى فى النص القرآنى - أمريكا

الحياة والموت يمثلان بالنسبة للكائن الحى البداية والنهاية، ورغم اعتقاد الكثير من الناس بأنه لا إلتقاء بين الحياة والموت، رغم أن الألتقاء موجود تماماً من الناحية العلمية.

إنَّ الحياة تعنى وجود شيئاً نشيطاً وله القدرة على الاحتفاظ بهذا النشاط من خلال سلسلة من التفاعلات الحيوية، والتي تمثل الادارة الحافظة لنشاطه ذلك، ومن ثمَّ فالحياة فى ذاتها تمثل كينونة قائمة مستقلة، كائن له صفاته وسماته وأحداثه المؤقتة ببداية ونهاية محددتين.

والموت أيضاً هو سلسلة من التحولات الحيوية التى تؤدى لهدم النشاط الحيوى، ولكى يتم هدم النشاط الحيوى لابد من وجود نشاط حيوى مضاد له، وله طاقة أعلى تمكنه من السيطرة الحيوية، ونعنى بذلك أنَّ الموت هو حدث غير مقصود لذاته، انما كانت الدراسات العلمية المنصبة موجهة لدراسة أسباب حدوث الانتهاء الوظيفى للخلايا، ونعنى بذلك « موت الخلايا » ومن ثمَّ يمكننا القول بأنَّ الموت كائن أى موجود، ووجوده يتحقق بوجود أسباب حدوثه، وكذلك الحياة موجودة بأسباب تحقق وجودها.

وليس معنى قولنا «تحقق الحياة والموت بتواجد أسبابهم» اطلاق قيومية قوانين الوجود لأسباب الوجود، بل إنَّ أسباب الوجود فى يد الموجد لها يحذف فيها ويغير ببدل ويضيف كيفما يشاء.

وإذا كانت دراسات فسيولوجيا الخلية أثبتت كينونة الحياة والموت (أى أنَّ كلاً منهما كائناً والكينونة (الوجود) يقتضى الخلق، ومن ثمَّ فالموت والحياة مخلوقات)، فإنَّ القرآن الكريم قد سبق تلك الدراسات الوظيفية للخلية بأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وذلك فى قول الله تعالى فى الآية (٢) من سورة النمل:

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾.

وعطف الموت والحياة يعنى وجود تلازم بينهما، فلكى يحدث الموت لابد من وجود الحياة، كما أنَّ الموت هو من الأدوات الرئيسية لاستمرار الحياة، فمن خلال

موت الخلايا وتحللها إلى العناصر المكونة لها، والتي تعود إلى الأرض، لتمتص بواسطة النباتات من جديد، وامتصاصها ذلك ضرورى لتغذية هذه النباتات لتواصل حياتها ونموها ، ولولا ذلك ما استمرت حياتها.

كما أنَّ كثيراً من الكائنات الحيّة تموت لتتغذى عليها كائنات أخرى والمعروفة بيولوجياً بالمتريّحات، ولولا وجود كائنات ميّسة لانقرضت تلك الكائنات الحيّة المترممة، واختلت العلاقات الحيوية بين الكائنات الحيّة على سطح الأرض.

إنَّ وجود المترمّحات لا يقتصر فقط على وجود كائنات حيّة كاملة، بل قد توجد خلايا مترمّمة داخل الأنسجة الحيّة تتغذى على الموادّ التالفة الميتة داخل الأنسجة، ومن تلك الخلايا « خلايا الدم الابتلاعية» وهى خلايا أميبية الشكل يمكنها ابتلاع الموادّ التالفة فى الأنسجة والخلايا، ولولا وجود هذه الموادّ التالفة الميتة لهلكت تلك الخلايا الابتلاعية، ومن ثم فوجود الموت متمثلاً فى الخلايا التالفة ضرورى لحياة الخلايا الابتلاعية.

إنَّ كثيراً ما تخرج الحياة من بين براثن الموت، ولانعى بذلك خروج الموادّ او الكائنات الحيّة من موادّ أو كائنات غير حيّة، ومن مظاهر ذلك خروج جنين الكائنات الحيّة « البيوضة» التى تضع بيضاً ، وهو كائن حى من قشرة البيضة الصلبة الميتة، وكخروج الجذير والريشة عند اثبات البذرة من غلاف البذرة الميت الصلب، وعملية الخروج لانعى الخلق أى خلق كائن حى من ميت، بل تعنى قدرة الكائن الحى على اظهار وجوده رغم وجود محيط صلب ميت يمانع اظهار هذا الوجود.

وعملية النفاذ الحيوية للكائن الحى من خلال الموادّ الميتة تقتضى بذل جهد يتمثل فى افراز العديد من الانزيمات التى تذيب هذه الجدر الميتة لترى تلك الاجنة الحياّة.

وكما أن الكائن الحى ينفذ من خلال الكائنات (الموجودات) الميتة، فان الموادّ الميتة تخرج من خلال الكائنات الحيّة، ومن مظاهر ذلك عملية التنح بالنبات، التى تؤدى الى خروج قطرات الماء من ثغور الورقة، وكخروج باقى نواتج التمثيل الغذائى من الكائن الحى فى صورة فضلات، ويمكننا القول بأنّ عملية الخروج للحياة من الموت والموت من الحياة تتعدى العمليات السابقة إلى معنى أكبر يعبر عن دورة الحياة

فجزيئات الماء غير الحية هي اساس تكوين وعمل الجزيئات والمواد الحية، ومن خلال نشاط الجزيئات والمواد الحية تخرج قطرات الماء غير الحية، وأدق لفظ لوصف تلك الدورة الحياتية هو لفظ الخروج والذي يعنى أن الخارج يتوقف تكوينه على مادة الخروج، ولكنها لا تمثله كلياً بل هي أساس خروجه فقط، وذلك بخلاف الخلق والذي يعنى ايجاداً من عدم، وليس من مادة خروج، وذلك ما نجد في قول الله تعالى في الآية (١٩) من سورة الروم.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾

وينبغى الاشارة إلى ضرورة التفريق بين ثلاثة أشياء عند تعرضنا لموضوع الحياة، بين (ماهية الحياة) والتي تعنى الحياة كتكوين، وبين (أسباب الحياة) والتي تعنى العمليات المؤدية للتكوين، وبين (سر الحياة) والذي يعنى الشيء المانح للتكوين أسباب الحياة، ونعنى بذلك الروح، واذا كنا قد استطعنا معرفة التكوين الحياتى وأسباب التكوين، فان قدراتنا تقف عاجزة عن فهم ماهية سر الحياة «الروح»، والتي تمنح بوجودها الشيء صفة الحياة، بل إننا لانستطيع فهم كيفية وجود الحياة بوجود الروح، وانتهائها بخروجها، ولا أدل على ذلك من عجزنا عن فهم كيفية تحول الجهاد متمثلاً في عصا موسى إلى شيء حى متمثلاً في حية تسعى، وقد أجمل القرآن ذلك في قول الله تعالى في الآية (٨٥) من سورة الاسراء:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾